

التحرير والتنوير

فالمراد بالتبيين على هذا تبين ما في القرآن من المعاني وتكون اللام لتعليل بعض الحكم الحافة بإنزال القرآن فإنها كثيرة فمنها أن يبينه النبي (A) فتحصل فوائد العلم والبيان كقوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) . وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنة وبيان مجمل القرآن بالسنة وترجيح دليل السنة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه إذ كل من الكتاب والسنة هو تبين النبي A إذ هو واسطته .

وعطف (لعلمهم يتفكرون) حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن وهي تهئية تفكر الناس فيه وتأملهم فيما يقربهم إلى رضى الله تعالى . فعلى الوجه الأول في تفسير (لتبين للناس) يكون المراد أن يتفكروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده وعلى الوجه الثاني أن يتفكروا في بيانك ويعوه بأفهامهم .

(أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون [45]) بعد أن ذكرت مساوئهم ومكائدهم وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحاً وبالعذاب الدنيا تعريضاً فرع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدرين أن يقع ما يهددهم به الله على لسان رسوله A فلا يقلعون عن تدبير المكر بالنبي A فكانت حالهم في استرسالهم كحال من هم آمنون بأس الله فلا استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالتوبيخ .

و الذين مكروا : هم المشركون .

والمكر تقدم في قوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم) في هذه السورة .

وقوله تعالى (السيئات) صفة لمصدر (مكروا) محذوفاً يقدر مناسباً لتانيث صفته .

فالتقدير : مكروا المكرات السيئات كما وصف المكر بالسيء في قوله تعالى (ولا يحق المكر السيء إلا بأهله) . والتأنيث في مثل هذا يقصد منه الدلالة على معنى الخصلة أو الفعلة كالغدر للغدر .

ويجوز أن يضمن (مكروا) معنى (اقترفوا) فانصب (السيئات) على المفعولية به .

ويجوز أن يكون منصوباً على نزع الخافض وهو باء الجر التي معناها الآلة .

والخسف : زلزال شديد تنشق به الأرض فتحث بانشقاقها هوة عظيمة تسقط فيها الديار والناس ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها . وقد أصاب ذلك أهل بابل ومكانهم يسمى خسف بابل . وأصاب قوم لوط إذ جعل الله عاليها سافلها . وبردهم مخسوفة اليوم في بحيرة لوط من فلسطين .

وخسف من باب ضرب . ويستعمل قاصرا ومتعديا . يقال : خسفت الأرض ويقال : خسف ا الأرض قال تعالى (فخشفنا به وبداره الأرض) ولا يتعدى إلى ما زاد على المفعول إلا بحرف التعدية والأكثر أن يعدى بالباء كما هنا وقوله تعالى (فخشفنا به وبداره الأرض) أي جعلناها خاسفة به فالباء للتعدية كما يقال : ذهب به .

والعذاب يعم كل ما فيه تأليم يستمر زمنا فلذلك عطف على الخسف . وإتيان العذاب إليهم : إصابته إياهم . شبه ذلك بالإتيان .

و (من حيث لا يشعرون) من مكان لا يترقبون أن يأتيهم منه ضر . فمعنى (من حيث لا يشعرون) أنه يأتيهم بغتة لا يستطيعون دفعه لأنهم لبأسهم ومنعتهم لا يبغتهم ما يحذرونه إذ قد أعدوا له عدته فكان الآتي من حيث لا يشعرون عذابا غير معهود . فوقع قوله (من حيث لا يشعرون) كناية عن عذاب لا يطيقون دفعه بحسب اللزوم العرفي وإلا فقد جاء العذاب عادا من مكان يشعرون به قال تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) . وحل بقوم نوح عذاب الطوفان وهم ينظرون وكذلك عذاب الغرق لفرعون وقومه .

(أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين [46] أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم [47]) الأخذ مستعار للإهلاك قال تعالى (فأخذهم أخذة رابية) . وتقدم عند قوله (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) في سورة الأنعام .

والتقلب : السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة . وأصله : الحركة إقبالا وإدبارا والمعنى : أن يهلكهم ا وهم شاعرون بمجيء العذاب .